بسم الله الرحمن الرحيم

لغة البحث العلمي والاستثمار الأمثل للغة العربية

الأستاذ الدكتور محمد احمد ربيع

اللغة ، هذه الظاهرة الاجتماعية ، كائن حي يولد وينمو ويتطور ويهرم ويموت أيضاً ، تبعاً لحيوية الأمة التي يعيش فيها (1).

ولكي تنتج اللغة وتثمر تحتاج إلى رعاية تؤهلها للإنتاج والاستثمار . وتعد اللغة أهم اكتشاف قام به الإنسان بجهود جماعية ، فهي أهم وسائل الاتصال والتواصل الإنساني : الحضاري والثقافي والعلمي ، ثم هي وعاء القيم والحضارة والفكر والثقافة ، ووسيلة نقل الإرث العلمي والأدبي

بين الأجيال ، فلولاها لاضطر كل جيل إلى بناء حضارته من الصفر (2) فضلاً عن كونها أداة التفكير لدى الإنسان ، فهناك تلازم بين اللغة والتفكير الذي لن يتم إلا باللغة ، فلولاها لما استطاع الإنسان التفكير .

وتعد اللغة الوسيلة التي تدرك بها الهوية القومية للأمة بل هي جزء حيوي من هذه الهوية ، ففيها تعرف الأمة طريقها للوجود ، وهي العلامة التي تشير إلى خصائص الأمة ، وتؤشر الاختلافات التي تميزها عن سواها من الأمم ، وتعبر عن تجاربها وتقاليدها وتراثها، فضلاً عن دورها في تحديد ملامح الشعب الذي يتحدث بها (3) ، وفي تكوين الأفكار والمشاعر المشتركة التي تكّون وحدته. ثم هي حلقة الوصل التي تصل ماضيه بحاضره مرة ومستقبله مرة أخرى ، فتحافظ على مقومات شخصيته.

غير أن أروع ما يمتلكه الإنسان ، من اللغة ، قدرته على ابتداع التراكيب التي تسعفه مخيلته بصياغتها للتعبير عن أفكاره ، بصيغ لا نهاية لحدودها وما تملكه اللغة نفسها من طواعية يعينه على ذلك ضمن استجابة اللغة في هذا الفضاء الواسع للصياغة ينشا الاتصال الإنساني بكل مستوياته : الاجتماعية والفنية والأدبية ، إلا أنه لا بد من قواعد وضوابط واجبة المراعاة لتنظيم العلاقة بين طواعية اللغة للتشكل وقدرة أصحابها على الابتكار على نحو سليم . وتنشأ هذه القواعد والضوابط على هيئة نظام لغوي ، وتتراكم وتتطور عبر طول الألفة بين اللغة وأصحابها ، لتحقيق التواصل الإنساني (4).

واللغة العربية ، على ما بها من عوائق عارضة ستذكر أسبابها ، أثبتت كفايتها وأهليتها ، ، فقد نزل بها القران المعجز بلغته وبيانه ، وبحث بها العرب المسلمون في علوم القران والحديث والفقة وعلم الكلام والفلسفة والنقد والطب والكيمياء والهندسة والجبر ، فأثبتت كفايتها واكتسبت طواعية ودربة ، وما تزال قادرة على العطاء ومواكبة العصر ، بما تمتلكة من خصائص ومزايا . وما يقال عن عجزها لا يعدو أن يكون محض ادعاء باطل ، على نحو ما يقرره العالم اللغوي الأب انستاس الكرملي من أن "على كل عربي متفرنج أن لا يقطع بقول عجز اللغة أو ضعفها ، إن لم يكن له وقوف على أسرارها أو ألفاظها ودقائق معانيها وبما فيها ، فهذا من الظلم والإجحاف بالحقوق مما لا حاجة للإشارة إليه".(5)

ومما يؤكد كفاية العربية وقدرتها على استيعاب مستجدات الحياة أنها رافقت العرب في فتوحاتهم وحملهم رسالتهم الحضارية إلى كافة أصقاع المعمورة المعروفة آنذاك ، بدءاً من عهد

الراشدين إلى انهيار دولتهم في الأندلس ، وإذا كان العرب قد انحسروا سياسياً فان آثار حضارتهم باقية حيث حلوا . وما كان ذلك ليتم لولا ما تمتاز به العربية من مزايا تؤهلها لهذا الدور .

ولقد نهضت العربية بمهمة حمل الفكر العربي ومظاهر الحضارة العربية إبان العصور الوسطى إلى أوروبا ، يوم كانت تغطي حياة شعوبها ظلمات الجهالة ، فأسهمت في إيقاظها من سباتها .

ورغم المزايا والخصائص الإيجابية التي تتمتع به العربية ورغم تاريخها الإبداعي المتميز ، تعرضت إلى حملات تشويه وطعن وتشكيك، على نحو لم تتعرض له لغة أخرى، وكان عرّابو هذه الحملة من المستشرقين الذين لم يتركوا تهمة إلا وصموا بها العربية ، انطلاقاً من فكر استعماري يستهدف الهوية القومية. وتجددت هذه الهجمة في ظل دعوى صراع الحضارات ونهاية التاريخ وما تهدف إليه من محاولة الاستحواذ على الإنسان ولغته وثقافته وكل مظاهر حضارته وتكريس تبعيته الثقافية .

غير أن أسوأ ما واجهته العربية، من مواقف معادية يتمثل في تنكر بعض أبنائها لها ، متابعيين للمستشرقين في دعاواهم ، متلمسين عيوبا يدعون أنها تنعكس على أسلوب تفكير العرب ، وتنتقص من حياتهم العقلية. وهؤلاء المتنكرون كثر نشطوا في تأليف كتب وكتبوا مقالات كثيرة ، وعقدوا مؤتمرات وندوات لترويج دعاواهم .

وقد كان لحملات المستشرقين ومتابعيهم من أبناء الأمة أثر في خلق هذه العوائق العارضة ، التي ينبغي العمل على تلافيها . ولبيان مدى خطورة هذه الدعاوى المغرضة وتأثيرها في اللغة ، يذكر البحث بعضاً منها :

- إن اللغة العربية لغة صحراء ولغة بداوة، (6) ومن ثم فهي قاصرة عن التعبير عن العلوم المتطورة، وكان من نتائج ذلك تخلف العقل العربي ، بسبب تخلف اللغة العربية نفسها .
- ادعاء أن اللغة ظلت متقوقعة على نفسها حقبة طويلة ، ولم تتأثر بها أقوام أو لغات أخرى (7). وفي هذا تجاهل متعمد الأثر العربية بالفارسية والتركية والاسبانية والبرتغالية والايطالية والانجليزية ، على الصعد الأدبية والعلمية .
- التشكيك بمقدرة العربية على الوفاء بمطالب العلوم الحديثة، لتخلفها عن مسيرة التقدم الحضاري .
- اتهام العربية بأنها ذات طبيعة وأنها حسية لا تاريخية تمتنع عن التطور (8).
- اتهام العربية بأنها غير منطقية وبارتفاع نبرتها الموسيقية، وبأنها ذات أبنية وزنية وقوالب جامدة دون أن تدل على شي مع ارتفاع النغمة البيانية فيها التي لا تعدو أن تكون ضرباً من الثرثرة.(9)

- اتهام العربية بأنها لا يمكن أن يقنع بها مثقف معاصر، لعجزها عن مجاراة العلوم التي تصوغ المستقبل .
- وصف الأدب العربي بأنه أدب ميّت لأن لغته ميتة، فهو ليس أدب شعب، فلغته غير مفهومة لعامة الناس.(10)
- اللغة العربية جامدة وبدائية، ولا يمكن أن تستجيب للتطور والتجديد ومقتضيات إيقاع العصر المتسم بالسرعة والابتكار والقفزات العلمية المذهلة .وقد رافقت هذه الاتهامات والمآخذ الباطلة دعوات مشبوهة تقترح مشاريع بدعوى إصلاح حال الأمة ولغتها مثل :
- الدعوة إلى إصلاح أنظمة اللغة العربية وقواعدها أو تغييرها أو إلغائها ، للتخفيف من صعوبتها وتعقيداتها مع الدعوة إلى إلغاء كل ما يتصل بالبيان العربي .
- الدعوة إلى استعمال لغات أجنبية كالانجليزية بدلاً من العربية ،لان الانجليزية لغة علم وحضارة وابتكارات وثقافة وتجارة عالمية ...الخ
- الدعوات إلى إحلال العامية محل الفصحى .
- الدعوة إلى إشاعة العامية الأدبية .
- الدعوة إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية .
- التبشير بسقوط اللغة العربية وانهيارها، لانهيار الثقافة العربية وسقوطها ، وترتفع الأصوات بهذا التبشير اليوم في أكثر من قطر عربي.
- الدعوة إلى اعتبار العاميات المحلية للأقطار العربية اللغات الرسمية المعتمدة في أقطارها.

والمؤلم أن بعض هذه الدعوات باشر أصحابها باتخاذ الخطوات لتطبيقها، فقد صدرت روايات بالعامية ، وكتبت دواوين شعرية بالعامية وبالحروف اللاتينية ، ومولت مجلات لتبني هذه الدعوات، وعقدت مؤتمرات ألقى فيها أدباء معروفون بحوثاً تؤكد موت العربية لغة وثقافة .

ومن هذا النشاط التطبيقي ما قام به عالم لغوي معاصر من وضع كتاب يتضمن تسعة شروط لموت اللغة، كلها تنطق على العربية في وضعها الراهن (11) وما صنعته بعض الجامعات في الغرب من طلبها من الطلبة العرب كتابة رسائلهم باللهجات المحكيّيه في أقطارهم ،لقد عملت هذه الجهود المشبوهة التي تبنى الإعلام الثقافي الترويج لها ، على زعزعة ثقة غير قليل بين أبناء الأمة وشبابها وبعض مثقفيها بلغتهم ، وتحميلها تبعات ما تواجهه أمتهم من تحديات، وفي مقدمتها القصور في مجال التقدم العلمي ، ما أسهم في خلق هذه العوائق

العارضة التي تعانيها العربية اليوم ومن ثم فان إزالة هذه العوائق تعد الخطوة الأولى لتمكين العربية من مواكبة المستجدات، ومن اخذ دورها في مشاريع النهضة وتأهيلها للاستثمار الأمثل .

ومن خلال ما تم عرضه ، من خصائص اللغة العربية وطبيعتها ومزاياها ، وما نهضت به من تلبيتها لمتطلبات الأنشطة العلمية والمعرفية المختلفة ، وما أسهمت به من حفظ الحضارة الإنسانية ونشر ثقافة الإنسان في حقب النهضة العربية، إبان الخلافة العربية الإسلامية بخاصة ، من خلال ذلك كله يظهر بجلاء قدرة اللغة العربية على الإيفاء بمتطلبات الاستثمار وطواعيتها للإسهام بالنهضة الاقتصادية والعلمية ، على أن تهيّأ لها الظروف ويزال من طريقها ما يقيد حركتها .

إن ما تعانية اللغة العربية اليوم لا يعدو أن يكون عوائق عارضة لا تتصل بحقيقة اللغة وطبيعتها وإمكاناتها ومن الممكن معالجتها إن لم يكن بعض منها في سبيله للمعالجة بعد أن توافر الوعي بضرورة العمل الجاد على ذلك ، وبعد أن تمت الإحاطة بالأسباب التي عملت على حدوثه .

وإذ تكون ظواهر العوق العارضة متعددة ، فلا بد من التوجه إلى حلها مجزأة يتولى كل فريق عمل أو جهة مسؤوليته لتلافي ما يمكنه من العوق للنهوض باللغة وتحصينها لأداء دورها المطلوب وتمكينها من الإسهام في النهضة العلمية والاقتصادية.

في هذه الورقة نعرض لجانب يتصل بمهمة استثمار اللغة ، على صعيد البحث العلمي ومتطلباته في الجامعات ومراكز البحوث العلمية. ويكتسب البحث العلمي مناهجه ولغته أهمية استثانية في مجتمعنا العربي في ظل حقيقة أن هناك فجوة كبيرة تفصل مجتمعنا عن الركب العلمي في العالم المتقدم، وان هذه الفجوة تزداد اتساعاً على مر الأيام في ظل ما يشهده العلم والتكنولوجيا . لدى الدول المتطورة من قفزات مذهلة. تحتم علينا إيلاء البحث العلمي كل ما نستطيع من عناية ورعاية ودعم، لإيقاف أتساع هذه الفجوة العلمية الحضارية وتمكين شعبنا من أن يخطو خطوات جادة في هذا المضمار .

وفيما يتصل باللغة ، في البحث العلمي، وقصورنا في هذا الجانب ، لابد من استذكار أننا نتكىء على ما لدى الغرب من علوم ، في مجال الطب والهندسة والصيدلة وعلوم أخرى ، أي أننا تبع لما لدى هذه الدول المتقدمة في هذه المجالات العلمية وما يتصل بها من مناهج وكتب ووسائل في الوقت الذي يتحتم علينا أن نخطو خطوات مستقلة في هذا المضمار، وفي مقدمة ذلك أن نبدأ ولو بخطوات وئيدة في أن تكون لغتنا هي لغة الدرس العلمي والبحث العلمي ولبيان ما يلزم بذلة من جهد يذكر أن من بين أربعمائة كلية طب، في الوطن العربي ، لا تدرس العلوم الطبية إلا في خمس منها : ولغة التدريس في البقية أجنبية (12)

لا شك في أننا لا نريد أن نشعر بالإحباط ولا أن نشيع روح التشاؤم ، غير أن بداية الطريق الصحيح دائما تتمثل في التعرف على المشكلة وأبعادها لكي نجد الحل الملائم لها، لا الصدود عنها وتجاهل مخاطرها.

ولابد للتعرف على أبعاد المشكلة من الاعتراف بأنه حتى في مجال الدراسات العليا الأدبية واللغوية، في جامعات ومراكز البحث الأدبي واللغوي في وطننا ، تشيع مظاهر من القصور والضعف لغة وتعبيراً وتركيباً لأسباب تتعلق بالمناهج والقائمين على تطبيقها . على الرغم من أن هذا الجانب ليس من اليسير معالجته وإصلاح الخلل فيه قياساً إلى حال اللغة في العلوم الصرفة والعلوم التطبيقية والتخصصات غير اللغوية التي تقتضي جهوداً مضاعفة.

وإذا كان أمر اللغة العربية ، على صعيد الدراسات العليا ، على هذا النحو الذي يدعو بعضه للأسف واستشعار مدى الخطر . فإن حال اللغة في الدراسات الأولية على صعيد التخصصات كافة ، ومنها التخصص الأدبي اللغوي يدعو إلى المبادرة بالعمل العاجل لتلافي الخلل .

إن ما بمكّن هذه الظاهرة من أن تأخذ طريقها إلى الانتشار ما يشيع ، على سبيل التبجح أحياناً والجهل أحيانا أخرى ، من أن العربية ليست بلغة بحث علمي ، ولا يمكن أن تصلح لذلك بحال. ومن ثم تتفسح الفرصة أمام الدعوات المشبوهة لاقتراح مشاريعها الملغومة .

ولا شك في أن تلافي ما في الدراسات الأولية من مظاهر القصور اللغوي أيسر من تحقيق الدرس والبحث العلمي والتأليف في العلوم الطبية والهندسية . والأمر نفسه يقال في الرسائل الجامعية المكتوبة بالعربية ، فهي تحتاج إلى متابعة وتشديد ونريد من التوجيه لتجنب مظاهر الخلل اللغوي فيها .

فالرسالة الجامعية عمل علمي ينبغي أن تتوافر فيه كل مقومات النجاح وفرص الوصول إلى هدفه ما يجعله بعيداً عن المآخذ ، وهذا اقل ما يتوخى منه. ولكي يحقق هذا العمل العلمي هدفه بنجاح، على صعيد التنظير والتطبيق ، مهما يكن الحقل العلمي الذي يبحث فيه ، لابد له من أن يكون واضح العبارة بيّن القصد مقنعاً ، يقود المتلقي إلى ما يريد من نتائج بسلاسة ويسر . وهو لا يستطيع بلوغ هذا المستوى قطعاً من غير أن يملك لغة سليمة، رصينة مبرّأة من الخطأ ، واضحة الدلالة دقيقة التعبير عن المعنى المطلوب والفكرة المتوخاة ، فضلا عن جمال الصياغة والحفاظ على دقة المعنى المراد .

أما امتلاك لغة درس وبحث وتأليف ، على صعيد العلوم الطبية والهندسية والعلوم الصرفة فهي غاية قصوى، ينبغي أن يبذل لها الجهد ، وتعد لها الخطط لضمان نجاحها، في ظل سطوة اللغات الأجنبية : ولا سيما الإنجليزية مع التوكيد على أهمية إتقان لغة أجنبية ولكن ليس على حساب اللغة الأم والأغراض والوجاهة والتباهي.

وإذا ما تحققت فرصة امتلاك لغة عربية مهيأة وقادرة على الوفاء بمتطلبات الدراسات العليا والعلمية خاصة، فإنها تسهم قطعاً في مواصلة السير السليم والمستقل في طريق النهضة العلمية، دون أن تقطع سبل التواصل لتحقيق التلاقي العلمي والحضاري لدى الآخر.

إن لغة بهذه المواصفات تعني قدرتها على الاستثمار وإسهامها في تقليل فرص استيراد المعرفة بكتبها وتقنياتها، والكف عن المتابعة لاقتناص ما لدى الأخر. ومن أوجه الاستثمار ما تنتجه هذه اللغة من فرصة التأليف والإبداع، بدل الهدر في شراء ما لدى الآخرين. هذا فضلاً عن الشروع في مشروع تقليص الهوة العلمية والمعرفية والحضارية التي تفصل عالمنا عن العالم المتقدم ، انطلاقاً من حقيقة استحالة بناء حضارة في غياب اللغة القومية التي تعبر عن روح المجتمع وثقافته.

ومن ثم فإن واجب الحكومات العربية والمنظمات المعنية المبادرة للعمل الجاد لاعتماد خطط تهدف لتحقيق الارتقاء بمستويات التعليم الجامعي بخاصة ، على أن يكون للغة العربية مكانها اللائق في هذه الخطط لتبلغ المستوى المنشود للنهضة وصولاً بها لأن تكون لغة بحث علمي بامتياز. وليس المناهج والكوادر القادرة على تطبيقها بكافيين وحدهما لتدعيم العربية ومنحها القوة والطواعية على تلبية متطلبات المجتمع وعلى تمكينها من الارتفاع إلى مستوى الاستثمار، فلابد من قوى ساندة ، يأتي في مقدمتها الإعلام بوسائله المتطورة خاصة الإعلام الثقافي الذي يتولى مهمة تبديد ما لحق بالعربية من تهم القصور وعدم الملاءمة لمواكبة التطور العلمي ، وبيان خصائصها ومزاياها وجمالياتها وقدراتها على الإبفاء بمهام البحث العلمي .

كما ينبغي على وسائل الإعلام التذكير المستمر بأنه كان للغة العربية دور فاعل في إيصال رسالتها الدينية والثقافية و الأدبية إلى كل شعوب العالم المعروف في حينه، دون أن يؤخذ عليها عجز أو قصور في حمل الرسالة . وهي قادرة اليوم على مواصلة هذا الدور . ثم لابد من التذكير بصلة العربية بموضوع الانتماء والهوية القومية لحفز روح المواجهة لدى الشباب بخاصة، لكل التحديات التي تواجهها الأمة ، عن طريق إعادة صياغة خطابهم الثقافي والعلمي باللغة التي نهضت بهذه المهمة في ماضي الأمة المشرق.

إن علينا اليوم، في عالم ثورة الاتصالات الالكترونية ، أن نبذل قصارانا للاستفادة من إمكانات اللغة في مشاريعنا وخططنا الثقافية والعلمية ، والعمل على أن نؤمن للغة العربية مكانها في هذه المشاريع والخطط، وحضورها الفاعل في مجمل الأنشطة الإعلامية والثقافية التي ينبغي أن يكرس قسم منها لمواجهة زوبعة الهجمة الظالمة على ثقافتنا ولغتنا .

ولا شك في أنه حين تتهأ الفرصة للغة العربية لاستعادة عافيتها تكون قادرة على توكيد الهوية الحضارية للأمة والارتقاء بثقافتنا ، فضلاً عن دورها في البحث العلمي والمهمات الدراسية والعلمية ، وما يترتب على ذلك من تأهيلها للإسهام في الأنشطة الاقتصادية.ولا سيما في مجال الاستثمار.

وإذا كان قد جرى التأكيد على الإعلام ووسائله، فذلك للتطور الهائل الذي تشهده هذه الوسائل ، في ظل الثورة التقنية الراهنة المتسارعة ، وبخاصة على صعيد الاتصالات الالكترونية وما تلعبه

الشبكة العنكبوتية من دور في إيصال المعلومة والفكرة ، والترويج للرأي، فلقد دخلت الحواسيب كل بيت وتعددت أشكالها وأنواعها، فضلاً عما تقوم به الهواتف الجوالة المتطورة على هذا الصعيد. فلا شك أن هناك خططاً ومشاريع ومقترحات تربوية وعلمية ، تسعى إلى تحقيق نهضة لغوية تضمن الإيفاء بمتطلبات العصر وتستجيب لايقاعة المتسارع ، لم يجر التطرق إليها خشية التشعب والإطالة.

مصادر البحث

1- فاخر عاقل (دكتور) ، سيكو لوجية اللغة العربية ، (مقالة) مجلة العربي، العدد (83) ص 65

2- إبراهيم أنيس (دكتور)، اللغة العربية بين القومية والعالمية ، القاهرة، 1970، ص 17

3- أنظر : محمد المبارك ، المجتمع العربي، دار الفكر ، دمشق، ص 53، وأديب منصور ، الانتماء العربي، بنغازي ، 1983، ص 14

4- عزمي الصالحي (دكتور) اللغة والوجود القومي ، بحث معد للنشر

5- مجلة المجمع العلمي العربي ، دمشق ، المجلد الأول ، الجزء الأول ، سنة 1921 ص 39، نقلاً عن وليد محمود خالص (دكتور) ، معضلة اللغة العربية بين الجابري وطرابيشي ، بيروت 2012 ،ص 14

6- أنظر : محمد عابد الجابري (دكتور)، تكوين العقل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، ط 10، 2009 ، ص 83، 173،17،88،87،86،84 ومحمد عابد الجابري ، التراث والحداثة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط3،2006، ص 134 .وانظر في الرد على هذه الدعاوي :
طالب عبد الرحمن (دكتور) ، العربية تواجه التحديات ، كتاب الأمة، العدد (116) 1427هـ ، ص 108 . وانظر أيضاً: مصطفى بن الحاج ، عالمية اللغة العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ، 1990.

7- أنظر : طالب عبد الرحمن (دكتور)، العربية تواجه التحديات ،ص97، 108، وانظر أيضاً: هادي نهر (دكتور) اللغة العربية بين العولمة وغياب المشروع الحضاري العربي، (بحث) في المؤتمر النقدي الحادي عشر، جامعة جرش، كلية الآداب ، قسم اللغة العربية ، نيسان، 2008، ص 67.

8- محمد عابد الجابري (دكتور)، تكوين العصر العربي، ص 90،89،86،76

9- المصدر السابق، ص 91،86،82،81، ومحمد عابد الجابري (دكتور) ، التراث والحضارة ص 148

10--- أنظر : سلامة موسى، البلاغة العصرية واللغة العربية ، ص4، القاهرة، 1964، ص 94

11- انظر: هادي نهر (دكتور)، اللغة العربية بين العولمة وغياب المشروع الحضاري العربي، ص 79

12- انظر المعلومة في المصدر السابق، ص 91.